الفصل التاسع

أهم دور الكتب والوثائق في العالم وكيفية الافادة منها

يشهد التاريخ لأمتنا بأنها حرصت منذ اقامة دولتها الاسلامية الكبرى على أن تكون المكتبات العامة حارسة للمخطوطات ، ومدارس مفتوحة الأبواب لطلاب العلم ، ورصدت لها من الجهود والأموال ما جعلها مقصد العلماء ، والطلاب فى زمن لم يعرف سوى الكتاب وسيلة لنشر الثقافة ومن أشهر هذه المكتبات بيت الحكمة ببغداد ، ومكتبة العزيز بالله الفاطمى بالقاهرة ، ومكتبة الزهراء بقرطبة ، وخزانة سيف الدولة فى حلب ، والظاهرية فى دمشق ، ومكتبة الأزهر بمصر والجامع الأعظم فى القيروان ، وجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى فاس وغيرها [1] .

وتاريخ المكتبات مرآة صافية ينعكس فيها تاريخ الحضارة الانسانية بوجه عام ، وتاريخ التقدم الفكرى بشكل خاص .

فالمكتبات ومحتوياتها تراث انسانى مشترك ساهم فيها أغلب الشعوب بدرجات متفاوتة وهى ذاكرة الجنس البشرى التى تحفظ تراث الانسانية وتقوم بتنظيمه ، واعداده للاستعمال والافادة منه [2] .

وتاريخ المكتبات هو جزء من تاريخ الحضارة الانسانية ، ودراسة

---

(١) للتفاصيل انظر عائشة عبد الرحمن : المرجع السابق صفحة ١٧ — ٢٩ .

(٢) محمد ماهر حمادة : المكتبات فى العالم — تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين ، الرياض ، دار العلوم ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ص ٧ .

الفكر الانسانى ، خصوصا وانه يشتمل على اوعية المعرفة الانسانية الوارثة لثمرات العقول على مدى العصور والأدهار [٣] .

والنظام التعليمى الحديث يرتكز على المكتبات لكونها المصدر الرئيسى للمعلومات ، فهناك عناصر ثلاثة على الأقل تدخل فى العملية التعليمية الحديثة ، وهى الأستاذ والطالب والمكتبة خصوصا وانها تركز على تنمية القدرات الطلابية وعلى الميول والرغبات .

يضاف الى ذلك ان المكتبة هى المكان المثالى الذى يهيىء البيئة التعليمية المطلوبة لتحقيق أهداف التعليم لمختلف القدرات والرغبات والاحتياجات ، كما ان توجيه واشراف الأساتذة على مشروعات الطلاب البحثية ومتابعتها خطوة خطوة من شأنه ان يكسب الطلاب مهارات التعلم الذاتى وبناء شخصيتهم العلمية والاجتماعية [٣] بمعنى ان التعليم فى مفهومه المتطور يركز على تكوين المهارات الأساسية والاتجاهات العلمية التى تجعل الطالب قادرا على تعليم نفسه بنفسه ، وليس مجرد حشو ذهنه بالمعلومات ومن هنا تبرز أهمية المكتبات التى يلتقى فيها الماضى بالحاضر ، ويطل الحاضر على المستقبل . وفيما يلى سنعرض لنماذج من دور الكتب والمكتبات فى العالم

اولا : فى مصر

١ — دار الكتب المصرية :

انشئت دار الكتب المصرية فى عام ١٨٧٠ م ولتأسيسها مقدمات ترجع الى عهد محمد على ، فقد انشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم خلف المسجد الحسينى . ولما ولى اسماعيل الحكم اضاف

---

(٣) المجلة العربية للعلوم الانسانية بالكويت : العدد السادس ، المجلد الثانى ربيع ١٩٨٢ مقال تحت عنوان المكتبة الشاملة كمحور لعملية البحث والتعليم فى الجامعات العصرية ص ٦٥ — ٧٩ .

اليها نحو ألفى مجلد من المحفوظات العربية والفارسية ، ثم تطورت الفكرة الى انشاء دار عامة للكتب (٤) .

ويذكر صاحب الخطط التوفيقية أن الخديوى اسماعيل هو صاحب فكرة تأسيس دار الكتب المصرية ، وانه أراد أن تكون هذه الدار مكانا لجمع الكتب المتفرقة فى المساجد والمخازن الحكومية ، ومكاتب الأوقاف وغيرها (٥) وانه أمر « على باشا مبارك » بالعمل على تحقيق ذلك ، فشرع فى بناء الكتبخانة الخديوية فى سراى درب الجماميز ، وجعل لها ناظرا ، ورتب لها خدمة ومعاونين ، وعمل لها قانونا لضبطها وعدم ضياع كتبها (٦) .

وقد ابتاع الخديو اسماعيل مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير « مصطفى فاضل » بعد وفاته ، وأهداها الى دار الكتب ، كما ابتاع نحو الفى مجلد من المحفوظات العربية والفارسية من تركه « حسن باشا المناسترلى » وأهداها الى دار الكتب أيضا ، يضاف الى ذلك أنه تم الانفاق على هذه الدار من ميزانية المدارس وفتح أبوابها لطلاب العلوم والمعارف ، وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ما كان يمكنهم الوصول اليها لولا انشاء هذه الدار ، فأدت ولا تزال تؤدى خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية (٧) .

وتتميز مقتنيات دار الكتب المصرية أنها تضم مجموعة فريدة من أوراق البردى العربية تقدر بحوالى أربعة آلاف بردية وقد تم نشر بعضها بواسطة الاستاذ الدكتور A. Grohmann ونشر البعض الآخر عن طريق بعض علماء البرديات من المصريين (٨) .

---

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م ص ٢٤٦ .
(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٩ ص ٥١ .
(٦) على مبارك : الخطط جـ ٣ ص ١٤ .
(٧) الرافعى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤٧ .
(٨) للتفاصيل انظر د. عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٨٣ ص ٦٦ — ٧٠ .

٢ — دار المحفوظات العمومية بالقلعة :

تأسست فى عهد محمد على فى عام ١٢٤٤هـ ، وأطلق عليها الدفترخانة ، وذلك كجزء من اهتمام محمد على بتحديث ادارات الدولة ، وحفظ أوراقها وسجلاتها وفقا للوائح والتعليمات التى تصدرها الحكومة .

وظلت هذه الدار منذ ذلك الوقت تمثل الدار المركزية لحفظ الوثائق فى مصر ، حتى جاء عصر اسماعيل وانشئت النظارات المختلفة التى تم الاحتفاظ فيها بأرشيفات خاصة بها ومن ثم نشأ نظام تعدد أماكن حفظ الوثائق(٩) .

وفى عصر الملك فؤاد ازدادالاهتمام بأمر الوثائق ، كما تشكلت لجنة فى عام ١٩٢٥ برئاسة « حسن باشا نشأت » لحصر الوثائق وتصنيفها وترجمتها ، وفى اعقاب ذلك نقلت بعض الوثائق الموجودة بالقلعة الى قصر عابدين فى دار أطلق عليها « دار الوثائق السرية والمحفوظات التاريخية الملكية » ، وقد اقتصرت هذه الدار على الوثائق التاريخية من بداية عصر (محمد على) وحتى بداية الحرب العالمية الأولى .

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بعدة سنوات حاولت الدولة جمع الأوراق التاريخية فى مكان واحد لتيسير دراستها والعمل على الافادة منها فتأسست دار الوثائق القومية(١٠) .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت دار المحفوظات تضم مجموعة كبيرة من الوثائق ، وبخاصة التى يتعرض منها لتاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى ، هذا الى جانب ملفات خدمة وربط معاش العديدين من رجالات مصر الذين شاركوا فى أحداثها التاريخية أمثال عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، وسعد زغلول ، ومصطفى فهمى ، ورياض باشا وغيرهم .

---

(٩) د. على بركات : دراسات فى منهج البحث التاريخى ، ١٩٨٠ ص ٤٥ .

(١٠) د. محمود عباس حمودة : المرجع السابق ص ٤٠ — ٤١ .

وعن أهم المجموعات الوثائقية الموجودة فى هذا الدار نذكر :

١ — دفـــاتر التزامات الجمارك .

٢ — دفـــاتر التزامات الولايات القبلية والبحريـــة .

٣ — دفـــاتر المكلفات .

٤ — دفاتر مسموح ومرتبات بدل مسموح .

٥ — دفـــاتر عمد ومشايخ القرى .

٦ — دفـــاتر جرايـــة وعليق .

٧ — دفـــاتر قيد ديوان مصر .

٨ — دفـــاتر قيد الأوامر المصادرة بديوان الجهادية .

٩ — مجموعة الفرمانات الصادرة من الباب العالى لمصر المحروسة .

١٠ — محافظ الدائرة الســنيـــة .

١١ — محافظ الداخليـــة .

١٢ — سجلات عموم خفر السواحل .

١٣ — سجلات المحـــاكم الشرعية .

١٤ — أوراق لجنة التصفية .

١٥ — أوراق وسجلات المديريات .

١٦ — أوراق الســـودان .

والجدير بالذكر أنه لا توجد فهارس منظمة للوثائق الموجودة فى دار المحفوظات ، كما أن الاهتمام بهذه الوثائق يكاد يكون معدوما مما يضـــع الباحثين أمام محنة حقيقيـــة .

٣ — دار الوثائق القومية بالقاهرة :

تأسست هذه الدار طبقا لنص القانون ٣٥٦ لسنة ١٩٥٤ ومهمتها جمع الوثائق التى تتصل بتاريخ مصر فى جميع العصور وتيسير البحث والاطلاع والعمل على نشر الوثائق ورفع مستوى البحوث التاريخية(١١) .

هذا وقد نص القانون ٣٥٦ فى مادته العاشرة على تشكيل اللجان الدائمة للمحفوظات للاشراف على صيانة المحفوظات ، وعمل سجلات لها ، ولتكون حلقة الاتصال بين تلك الجهات ، ودار الوثائق القومية .

وعن تحديد معنى الوثيقة فان كل وثيقة مهما كانت مدتها فانها يمكن أن تكون جزءا من المادة التاريخية على مرور الأيام خصوصا وان جميع الوثائق لازمة للمؤرخ سواء فى ذلك الوثائق المالية أم الادارية أم التعليمية أم القانونية أم غيرها(١٢) .

ومن المعروف أن المؤرخ ليس عبدا للوثائق والمخطوطات بل هو ناقد حصيف يختار منها ويكتب ما يخاطب به عقول الناس فى كل عصر . ومن البدهى القول أن الشعوب المتقدمة فى سلم الحضارة تحافظ على وثائقها خصوصا وأن هذه الوثائق تعد كنوزا ثمينة ، فهى الشاهد الأكبر على التاريخ ، وهى الدليل الأعظم على الشخصية الحضارية لأى شعب من الشعوب . والدراسات التاريخية المبتكرة تعتمد اعتمادا كبيرا على الوثائق لكونها من المصادر التاريخية الأصلية والأساسية لكل باحث يرغب فى اضافة حقائق علمية لم تكن معروفة من قبل سواء للمؤرخين أم غيرهم(١٣) .

---

(١١) محمود عباس حمودة : النشاط الدولى فى خدمة الوثائق ، مخطوط صفحة ٤١ .

(١٢) دار الوثائق القومية : نشرة تفسير القانون ٣٥٦ لسنة ١٩٥٤ وتنظيم المحفوظات ص ٢٦ .

(١٣) الدارة : العدد الأول ، شوال ١٤٠٥ / يونيو ١٩٨٥ مقال للاستاذ عبد الله الحقيل تحت عنوان « أهمية تجميع تراثنا الوثائقى المتناثر فى مكتبات العالم » .

وعن أهم المجموعات الوثائقية الموجودة فى هذا الدار نذكر :

— أوراق تتعلق بالسيد جمال الدين الأفغـــانى .

— أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابيـــة .

— تقارير عن الثـــورة العرابيـــة .

— محافظ الثورة العرابيـــة .

— محافظ مجلس الوزراء .

— محافظ مجلس النظـــار .

— ديـــوان خديـــو .

— ديوان المعيـــة السنية (عربى) .

— محـــافظ الحجـــاز .

— محـــافظ الشـــام .

— محـــافظ عـــابدين .

— محـــافظ الابحاث .

هذا الى جانب مذكرات العديد من القادة الذين شاركوا فى الأحداث ومنها مذكرات أحمد عرابى المعروفة بكشف الســـتار عن سر الأسرار ، ومذكرات مصطفى كامل ومذكرات محمد فريد ، ومذكرات ابراهيم الهلباوى ، ومذكرات محمد على علوبة وغيرهم .

ثانيا — فى تركيـــا

نظرا لأن مدينة استانبول ظلت دارا للخلافـــة الاسلامية اكثـــر من أربعة قرون ، فقد حوت من تراثنا الاسلامى ما لم تحوه مدينة اســـلامية أخرى لذلك سنخص أهم مكتباتها بالذكر .

١ — المكتبـــة السليمانية :

ويطـــلق عليها اسم (سليمانية عمومى كتخانـــه سى) أى المكتبة السليمانية العامة ، وقد جمعت الحكومة التركية فى هذه المكتبة محتويـــات

العديد من المكتبات الحكومية ، وجعلتها مقرا للهيئة الحكومية التى تشرف على جميع المكتبات التركية ، وهيأت فهارس منظمة لهذه المكتبة ، وأوجدت بها أماكن خاصة للتصوير ، وخصصت قاعتين للمطالعة احداهما لمطالعة المخطوطات ، والأخرى للباحثين والطلاب ، ويوجد بهذه المكتبة ما يقرب من عشرين الف مخطوط ليست جميعها باللغة العربيـة ، بل منها ما هو مكتوب بالتركية والفارسية .

٢ — مكتبة السلطان محمد الفاتح :

تعد من أقدم المكتبات فى تركيا ، حيث انشئت فى عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ، وهى غنية بالمخطوطات حيث بلغ مجموع محتوياتها ٥١٨٨ مخطوطا .

٣ — مكتبة السلطان احمد الثالث :

وتقع هذه المكتبة بالقرب من مسجد أيا صوفيا ، وبها نفـائس من المخطوطات والكتب والتى من أهمها :

— الفتوحات العثمانية للأقطار اليمنية لابراهيم سنان باشا .

— البرق اليمانى فى الفتح العثمانى للنهروالى .

— صورة الأرض ووصف أشكالها لابن حوقل .

٤ — مكتبـة ايا صوفيـا :

وتضم طائفة من المخطوطات النفيسة والنادرة ومن أهمها كتـابه (فضائل مكة والمدينة لمؤلف مجهول) .

ثالثا — فى الولايـات المتحـدة

مكتبة الكونجـرس الأمريكى :

يبدأ تاريخ مكتبة الكونجرس مع تاريخ الولايات المتحـدة فنتيجـة لاحتياج أعضاء الحكومة الأمريكية ، وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب الى مراجع ومصادر لاجراء بحوثهم ومناقشاتهم كان لابد من انشاء مكتبة لسد هذه الاحتياجات فتأسست مكتبة الكونجرس فى عام ١٨٠٠م ، وعين الرئيس

جيفرسون أول أمين لها . وقد نمت مكتبة الكونجرس نموا رائعا وتوسعت مجموعاتها كل التوسع ، وتعددت خدماتها وتنوعت ، وأخذت مركز المكتبة الوطنية ، ثم أصبحت على مر الزمن أضخم مكتبة فى أمريكا ، كما أصبحت مركزا للثقافة العالمية ، الى جانب كونها مركزا للثقافة الانجلوسكسونية ، وأيضا فان تشجيعها للعلوم والفنون والدرس ، جعلها أقرب الى أن تكون جامعة وطنية .

وعلى الرغم من أن مكتبة الكونجرس تقدم خدماتها للكونجرس وجميع موظفى أجهزة الدولة الاتحادية التنفيذية والقضـــائية والعلماء والبحاثـــة والطلاب ، والمكتبات فى أرجاء العالم ، وعلى الرغم من أنها ليست مكتبة عامة الا أنها تفتح أبوابها للراشدين من عامة الناس ، وتقدم خدماتها لهم فى حدود الاطلاع الداخلى والتصوير فقط .

والجدير بالذكر أن مكتبة الكونجرس لم تكن المكتبة الوطنية الوحيدة التى تديرها حكومة الولايات المتحدة الاتحادية ، بل يوجد عـــدد كبير من المكتبات الحكومية الأخرى ، ففى واشنجطن وحدها أكثـــر من مائة مكتبة حكومية اتحاديـــة[١٤] .

رابعا — فى أوربـــا

— مكتبة المتحف البريطـــانى :

فى القسم الشرقى منها العديد من الكتب والمخطوطات العربية التى تتعلق بتاريخ العرب ، وبها قسم يمارس بالكتب العربية فى ثلاثة مجـــلدات . وتعد هذه المكتبة أحد مصادر المعرفة الانسانية الكبرى فى العالم ، وقـــد بلغ عدد كتبها فى العقد السادس من هذا القرن أكثر من سبعة ملايين مجلد ، وأكثر من مائـــة ألف مخطوط[١٥] ، ومن أبرز كنوزها حجـــر رشيد الذى اكتشفه شمبليون الفرنسى ، والذى كان مفتاحا للتعرف على اللغة المصرية القديمـــة .

---

(١٤) حمادة : مرجع سابق ص ٣٥٣ — ٣٦٤ .
(١٥) نفسه ص ٢٢١ .

ـ مكتبة جامعة ليـــدن بهولندا :

تعد مدينة (ليدن) من اهم مراكز الاستشراق فى أوربا وفيها مطبعة (بريل) التى تعد أكبر وأقدم مطبعة عربية فى أوربا ، وفيها طبع العديد من المؤلفات العربية كدائرة المعارف الاسلامية ، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف .

وهذه المكتبة تضم ما يقـــرب من المليون ونصف الكتاب وبها قسم شرقى يضم حوالى سبعة آلاف كتاب منهما حوالى ثلاثة آلاف مخطوط .

ـ مكتبة الفكر الأوربيـــة بألمـــانيا :

قامت الحكومة الأمريكية ببناء هذه المكتبة بعد الحرب العالمية الثانية وجمعت فيها من الكتب ما لم يمكن أن يوجد مثلها فى أى مجتمع بأوربا .

المركز الدولى للوثـــائق :

International Council Archives

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وما جرته على المجتمعات الانسانية من تدمير وخراب ، تبنى بعض المفكرين صيغة من التعاون بين الدول عن طريق اعتماد الثقافـــة والعلوم فى المعاملات الدوليـــة . وفى نوفمبر من عام ١٩٤٥ افتتح فى لندن المؤتمر الدولى الذى كان بداية وميلادا للمنظمـــة الدولية للتربية والعلوم والثقافة التى تعرف بمنظمة اليونسكو ، وخـــلال ذلك الاجتماع اتخذ المؤتمرون قرارا بتشكيل المجلس الدولى للوثائق ، كما تقرر اتخاذ باريس مقرا دائما له ، وكان أول عمل قام به المجلس المذكور هو اعداد ادلة وفهارس بيليوجرافية للوثائق التى نشرت فى أوربا منـــذ عام ١٩٣٤ ومنذ عام ١٩٠٠ بالنسبة لباقى القارات الأخرى ، فكان ذلك أول مطبوع يؤكد ويدلل على التعاون الدولى فى حقل الأرشيف .

أما عن أهداف هذا المجلس فنتلخص فيما يلى :

(أ) عقد المؤتمرات الدولية للوثائق بصورة دورية .

(ب) اقامة العلاقات وتنميتها وتعزيزها بين أمناء الوثائق فى كافة البـــلاد .

(حـ) تشجيع كافة الاجراءات المتخذة للمحافظة على التراث الوثائقى الانسانى وصيانتـــه .

(د) التعاون مع الهيئات ذات العلاقة بالتوثيق ، وبشكل يضـــمن صيانة الخبرة البشرية واستخدام التوثيق من أجل صالح الانسانية[١٦] .

وبعد أن تعرضنا لبعض النماذج من دور المكتبا تـوالوثائق فى العالم ينبغى أن نذكر أن لهذه الدور وغيرها أهميـــة قصـــوى فى انجاح تكوين الانسان المثقف القادر على تعليم نفسه بنفسه ، والذى يمكنه الافادة من مصادر التعلم . يضاف الى ذلك أن الحـــركة التاريخية يصعب عليها أن تنهض بنفسها الا اذا هيأت دور الوثائق والمحفوظات والمكتبات التى تضم أشتات المعلومات نفسها لمساندة المؤرخين وعملت على تيسير الأمور لهم .

---

(١٦) حمودة : المخلوط سابق الذكر ص ٨ — ١٢ .